وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة.

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتى بالمقابل لهؤلاء ، وفى ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شىء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشىء المقابل.

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ [1] لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

فلا بد أن يأتى إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ [2] لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الأنفطار]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار.

ويأتى الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح.

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا [3] إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) الأبرار : جمع بَرّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان . والبار : هو الذى يبر والديه فيحسن إليهما . [لسان العرب - مادة : برر] بتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث فى المعاصى ، غير مكترث ولا مبالٍ ، وهو أيضاً من بالغ فى العصيان وجهر به . [القاموس القويم ٢/ ٧٣] بتصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا فى الطريق المستقيم المطمئن الواسع . وقال تعالى : ﴿ .. وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج] . أى : الخاشعين . والخبت : المكان الواسع المطمئن من الأرض . [القاموس القويم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدى [١] ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا [٢] وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقِّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذى يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذى يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدى العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذى يدَّعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبيِّت [٣] العداء للإسلام الذى لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبى ﷺ .

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أى : عقد رأى . وفى الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفى عقدته ضعف ، أى : فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه» . فالإيمان أمر يعتقده القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهرى بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن فى القلب إيمان . فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) بيَّت أمراً : دبَّره فى خفاء ، كأنه دبَّره فى الليل ليخفيه . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم - ١/ ٨٩]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ..(٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع، ولذلك يقال: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من عبادة أورثت عزاً واستكباراً.

أى: أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار [1].

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى: خضعوا خشية لله تعالى، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى ألاَّ يعاقبهم الله، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله.

وأصل الكلمة من «الخبت» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة، وكذلك الخبت فى الإيمان.

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم:

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى: الملازمون لها، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً، ونعيم الجنة مقيم ودائم، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب [2]؛ لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار، أما فى الآخرة، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم، فهم أهل النعيم المقيم أبداً.

---

(١) الاستكبار: التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وادعاء الشىء، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير.

(٢) السلب: هو سلب النعمة من الإنسان.

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين: الفريق الذى ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله، وصدوا عن سبيل الله، وابتغوا الأمر عوجاً، هؤلاء لن يُعجزوا[1] الله، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف.

وهم الذين خسروا أنفسهم، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التى عبدوها من دون الله، ولا شيء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب، وهم الأخسرون.

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها.

إذن: فلكل فريق مسلكه وغايته.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل.

وكلمة «الفريق» تعنى: جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد، مثلما نقول: فريق كرة القدم أو غيره من الفرق، فهى جماعات، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها.

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿.. فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[2] ﴿٧﴾﴾ [الشورى]

---

(١) أعجزه: جعله عاجزاً عن نيله، وأفلت منه فلم يقدر عليه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال] أى: لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا.

(٢) السعير: النار المشتعلة المتقدة المتوهجة. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ [التكوير] أى: أوقدت بشدة. ويراد بالسعير: نار جهنم. ويقول تعالى: ﴿.. مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] أى: زدناهم ناراً هائجة موقدة مشتعلة.

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون.

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسيِّدَى الحواس الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط [1] والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين.

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها [2] ، فالحق سبحانه يستحق الشكر [3] عليها.

ونحن نعلم أن الطفرات [4] الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية.

---

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض . ومن المجاز : استنبط الرأي الصحيح : استخرجه ببحثه وفكره كمن يستخرج ماء من البئر . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء] .

(٢) تمحيص الشيء : اختباره وفحصه بدقة . [المعجم الوسيط] بتصرف .
وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] . أي : يطهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضي على الكافرين . وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٥٤) ﴾ [آل عمران] أي : يطهر الإيمان الذي في قلوبهم من الوساوس والشكوك . [القاموس القويم] .

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثني على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليها .

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهي وثبة في ارتفاع . وقد طفر يطفر : وثب في ارتفاع . [انظر لسان العرب] .

ومثال ذلك: هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ، فارتفع الغطاء عن الإناء.

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيِّزاً أكبر من حيز السائل الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة.

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ..(٢٤) ﴾ [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع.

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكِّره بالفارق بين الذى يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى ألا يستويان.

لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء.

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا:

﴿ ..فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

أى: أن الإنسان قد يكون مبصراً، أو له أذن تسمع، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله فى التقاط مجاهيل الأشياء.

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وَصْفَ كل طرف وصراعه مع الآخر، واختلاف كل منهما فى الغاية، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام.

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى.

ومثال ذلك: أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ[1] مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

والآية توضِّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ، فيقول:

﴿ .. إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءَتَى الآية تكون مكسورة، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة[2]، أما فى القَراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير: الرسول المنذر بالعذاب. وأنذره: حذره، وأنذره شيئاً: أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه. أى: خوَّفه منه ليبتعد عنه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا .. (٤٠) ﴾ [النبأ] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا .. (٣٦) ﴾ [القمر]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) ﴾ [الحج]. [القاموس القويم ٢/ ٢٥٨] بتصرف.

(٢) قراءة الفتح قرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى: أرسلناه بأنى لكم نذير مبين.

السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال:

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وأما فى القراءة الأخرى بالفتح فتعنى أن الرسالة هى:

﴿ ..أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

فكأن القراءة الأولى تعنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير فى القرآن ، مثل قوله تعالى:

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم [1] مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهذا يعنى أن الملائكة يدخلون على المؤمنين فى الجنة من كل باب [2] ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

---

(١) الضمير فى (عليهم) عائد على أولى الألباب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد] .

(٢) للجنة أبواب ، عدَّها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر .

وقول نوح عليه السلام : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبى الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الآية التى قبلها :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى: (1)

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى .

وكذلك نجد الحق سبحانه يُحنِّن قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشَّهم أو يخدعهم .

---

(1) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيئتهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٢٦]

واستقبل الملأ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ[2] ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

والملأ - كما نعلم - هم وجوه القوم، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة، ويتصدرون أي مجلس

وهناك مثل شعبي في بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول: «فلان يملأ العين».

أي: أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة، فلا جزء في العين يرى غيره.

ويقال أيضاً: «فلان قَيْد النواظر» أي: أنه إذا ظهر تقيَّدت به كل النواظر، فلا تلتفت إلى سواه، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه.

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة، أو الدائرة الأولى التي حول المركز، فَحَوْل كل مركز هناك دوائر، والملأ هم الدائرة الأولى، ثم تليهم دائرة ثانية، ثم ثالثة وهكذا، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز، فتتشتت الدوائر.

وردَّ الذين يكوِّنون الملأ على سيدنا نوح قائلين:

---

(١) الملأ: أشراف القوم أو جميعهم.

(٢) الذين هم أراذلنا: أي: أفقرنا وأحقر الناس في نظرنا.

بادي الرأي: ظاهره الذي لا روية فيه، أي: رأي سطحي غير متعمق.

وقرىء «بادىءَ الرأي»: أي: بدء الرأي وأوله من غير روية أيضاً [القاموس القويم].

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ..(٢٧)﴾ [هود]

أى: أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سوَّدك [1] علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ المَلاك [2] أسوة لهم .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قُلْ لهم :

﴿ ..لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

إذن : فالرسول إنما يجىء مُبلِّغ منهج وأسوة [3] سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

---

(١) سودك علينا : جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس . ولذلك عندما قال مشركو مكة : ﴿ ..لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قيل لهم : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]. [بتصرف من تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٤]

(٣) الأسوة : القدوة . والمراد بها هنا : القدوة الحسنة التى ينبغى على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..(٢١)﴾ [الأحزاب] .

ومثال ذلك: أنت حين ترى الأسد فى أى حديقة من حدائق الحيوان، يصول ويجول، ويأكل اللحم النَّىء المقدم له من الحارس، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟.. طبعاً لا، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله.

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس؛ ولذلك قلنا: إن الأسوة هى الدليل على إبطال من يدَّعى الألوهية لعزير [1] أو لعيسى عليهما السلام.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملأ الكافر من قوم نوح:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

والأراذل [2] جمع «أرذل»، مثل قولنا: «أفاضل قوم»، وهى جمع «أفضل».

والأرذل هو الخسيس الدنىء فى أعين الناس. ورذال المال أى: رديئه. ورذال كل شىء هو نفايته.

ونرى فى الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن، يقوم بها صغار البنين والبنات، فيفصلون القطن النظيف، عن اللوز الذى لم يتفتح

---

(١) عزير: هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعبدوه لعلمه بالتوراة وحفظه لها كما فى الكتب حرفاً بحرف [القاموس القويم ٢/ ١٨]، و[تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨]، وهو الذى ورد ذكره فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة].

(٢) رَذُلَ الشىء، رَذَالة ورُذُولة: صار خسيساً رديئاً، فهو رَذْلٌ.

والأرذل: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل] أى: إلى الهرم والعجز. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء]، أى: أخس الناس، فى نظرنا. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]. أى: أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا. [القاموس القويم].

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعانى من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح.

وكذلك يفعل الفلاحون فى موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب.

إذن: فرذال كل شيء هو نفايته.

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

أى: أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع.

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم فى موضع آخر:

﴿ ..وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء]

ولم يَنْفِ نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى فى المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعانى من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المُخلِّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به.

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل: أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم.

ولكن الغالب فى دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان فى مراجل[1] الألم بسبب الفساد ، وما إن

---

(١) المراجل: جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها. وقيل: هو القدر المصنوع من النحاس خاصة. [انظر: اللسان ، مادة: رجل].

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفُّون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب.

إذن: فكل رسول يأتى إنما يأتى فى زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس ؛ وطغيان يعانى منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان.

ويأتى الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بالفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا. وكأن هذا القول طَعْن فى الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجىء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجىء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد.

وهى غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادى من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد.

لكن آفة [1] الثائر من البشر شىء واحد ، هى أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضِّل قوماً على قوم ، ولا يدلل مَنْ طُغِى عليهم ، ويظلم مَنْ طغوا.

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه.

(١) آفة الشىء: الخطأ الذى فيه ، أو نقصه ، أو عيبه. [راجع: لسان العرب - مادة أوف]

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا . . (٢٧) ﴾ [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ . . (٢٧) ﴾ [هود]

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى [1] هي ﴿ بَادِئَ الرَّأْيِ . . ﴾ .

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ . . (٢٧) ﴾ [هود]

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلْقَى إلى الإنسان أيُّ شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بإمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقَّبوا دعوتك وتأمَّلوها ونظروا في عواقبها بتدبُّر لما آمنوا بها .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٤٢) : «يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بادئ الرأي» أي أول الرأي ، أي : اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز» .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملأ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا فى دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ،ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذى تعقَّل وتبصَّر ، وباللسان الذى أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه [1] .

إذن : فهذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرَّين ، فهم الذين يقدِّمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهى عن طهى الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدِّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تتمة السيادة .

---

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور فى لسان العرب : «معناه : أن المرء يعلو الأمور ، ويضبطها بجنانه ولسانه» .

وحين نمعن النظر لوجدنا أن سيادة الثَّرىّ أو صاحب الجاه إنما تأتى نتيجة لمجهودات من يقال عنهم: إنهم أراذل.

ولو أنهم تخلَّوا عن الثرى أو صاحب الجاه، لما استطاع أن يكون سيداً.

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملأ الكافر من قوم نوح:

﴿ ..وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل، وأنكروا فضل هؤلاء الناس.

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التى تنتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] ..(٣٢) ﴾ [الزخرف]

إذن: فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفـوع على أنه الغنى، لا، فليس المرفـوع هو الغنى، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه.

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه، وغيره سيخدمونه فيما رُفعوا فيه؛ لأن المسألة أساسها التكامل.

(١) المقصود بالقريتين: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف، ثم قال: «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان» تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٢) سخرياً: أى: يُسخِّر بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا. قاله السدى وغيره. (تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧) ونقل ابن منظور فى اللسان: «سخريّا: عبيداً وإماء وأجراء».

راجعه على الأصل وخرّج أحاديثه صاحب الفضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ / عادل أبو المعاطى.